الفنون الشعبية
والصناعة التقليدية بمراكش

عبد العزيز ابن عبد الله

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بودي ان اقصر حديثي اليوم على الفنون الشعبية بمراكش واقليمها اللهم الا من حيث المقارنة والتنظير مع باقي الجهات المغربية ولكن يجب ان نحدد اطار هذا البحث فنتساءل عن مفهوم الفنون الشعبية ذلك أن صفة الشعبية قد الصقت بكثير من المعطيات ذات الطابع الاجتماعي والاقتصادي وحتى الفكري فتداخلت كثير من العناصر يندرج بعضها تارة فى مدلول الفولكلور Folklore كعلم للتقاليد والعادات والمعتقدات والاساطير والاغاني والآداب الشعبية عموما وهو المعنى الذي افرغ فى كلمة فولكلور لاول مرة فى انجلترا عام 1846 م ، ونجد مفهوم الفولكلور يتسع ويتمدد ليشمل القصص الشعبي والاغاني وكل جوانب الحياة الاجتماعية

(1) نص محاضرة القيت بمراكش يوم 29 مايو 1975 بمناسبة افتتاح شهر الفولكلور والفنون الشعبية بمراكش .

ماديا وروحيا مما لا يدخل فى علم بعينه ،ولكن ما لبثت أوربا ان اتجهت منذ نهاية الحرب العالمية الاولى الى تمطيط هذا المفهوم ليتصل بالاقتصاد السياسي وتاريخ المؤسسة الشعبية ، كما يتصل بالجانب الشعبي فى الحقوق والآداب والفن وحتى التكنولوجية دون امتزاج وانصهار فى هذه المجالات كعلوم وقد صدر عام 1917 كتاب حول بيبليوغرافية الفولكلور وضع تخطيطاته الاستاذ هوفمان كراير Bibliographie folklorique par Hoffman Krayer انطلاقا من هذا المفهوم الجديد الواسع للفولكلور فرسم لنا صور القرية وما تحتوي عليه من مختلف المقومات فأدرج فى لائحته الطويلة الحرف التقليدية والتقنيات والفنون الشعبية بما فيها من طب شعبي وموسيقى ومسرح وأحاجي والغاز وامثال وحكم بل حتى مصطلحات الشعب وتعابيره الخاصة التي طمعت اللغة واثرتها كما اذكت الفكر انطلاقا من الوجدان ولاول مرة اهتمت فرنسا بهذه الفنون فأسست عام 1936 متحفا للفنون والتقاليد الشعبية .

فأين نحن فى المغرب من هذه البيبليوغرافيات ؟ الواقع ان هذه التلقائية الشعبية التي طبعت الفولكلور عند الشعوب المحافظة خاصة كشعب الانجليز من ابرز خواص الذاتية عند الشعوب العربية لا سيما فى الشمال الافريقي ذلك أن كل العناصر التي لم يستطع العلم البرهنة بواقعية على ماهيتها كمقوم يشكل ركنا فى حياة الانسان كلها اندرجت تلقائيا فى المفهوم الشعبي الفطري لتلك الازدواجية التي تجعل من الانسان الحي معادلة متواكبة تتوازى فيها الروح مع الجسم والقلب مع العقل والوجدان مع المنطق ، وهذا التساوق الطبيعي هو الذي ينقص كثيرا من الحضارات التي رجحت جانبا على آخر دون أن تحاول التنسيق والتوفيق فلهذا كان مفهوم الفولكلور فى هذا الاطار من مقومات الحضارة الاسلامية التي فسحت المجال للتلقائية الشعبية بصورة شعر معها رجال الفكر انفسهم بأنهم اذا لم يندرجوا فى هذه المجموعة فانهم سيشذون عن طبيعة الانسان الحق ولذلك راينا فى تاريخ الاسلام مجموعة من رجالات الفكر يندمجون فى البوتقة الشعبية كقصاصين وزجالين وموسيقيين بل وفنانين يدلون بدلوهم فى مختلف هذه المناحي التي نجد لها أصداء فى

صناعاتنا التقليدية وفى شتى انشطة الفكر الشعبي التي كانت تتمثل قبل فترات التحجر والانكماش فى حركات وسكنات رجل الشارع المهذب الذي لا تمنعه اميته من اكتساب نوع من الرصانة الفكرية قد لا توجد عند الكثير من المثقفين ، فالامة التي لا تنطلق فيها بكل حرية « الفنون الشعبيـــة » بهذا المفهوم الواسع لا يمكن ان يكتمل فيها قوام الحيوية ، فلذلك أرى انه انطلاقا من تاريخنا الحضاري المعزز بالاتجاه الجديد فى أوربا والعالـــم الحديث يجب ان نعطي لفنوننا الشعبية امكانات أوسع للتطور والاشعـــاع ولا يهمنا فى طفرتنا الحضارية هذه ان تتداخل العناصـــر لا سيمـــا وان النظرة العلمية الدقيقة لمفهوم الفولكلور الشعبي فى أوربا قد سطـت على الكثير من المعطيات التي تتجاذبها العلوم والفنون الاخرى .

فلننظر اذن الى هذه المعطيات الشعبية فى مراكش واقليمها خاصة ولننطلق اولا مما اضطرت أوربا الى اعتباره جزءا من الحضارة التلقائيـــة الشعبية ، فهنالك عندنا طب شعبى قد تحدثت عنه باسهاب فـــى كتابـى « الطب والاطباء » الذي صدر منذ 1380 هـ / 1960 م بمقدمة من حضرة الاستاذ الكبير السيد محمد الفاسي ، وهذه المادة ثرية بما تنطوي عليـه من أعشاب وعقاقير جمعها الشعب وجربها قبل ان يفيد منها أطباؤنا فى مصنفاتهم وما زال العشابون عندنا يمتازون بالضلاعة فى معرفـــة خواص الحشائش مما أصبحت التجارب الصيدلية الحديثة تهتم به باسم الدعوة الى طبعية العلاج أي استخلاص الدواء من الطبيعة .

ولن اتحدث عن الموسيقى والملحون والازجال والاحاجي والالغـــاز والامثال الشعبية لان الاستاذ الكبير محمد الفاسي المعروف بضلاعته فى هذا الميدان قد كفانا ذلك ، غير أنني أود ان اشير الى جانب هام يتصـــل بكل ذلك ويتصل باختصاصي فى حقل اللغة وبحكم الرسالة التي اضطلع بها منذ ازيد من عشر سنوات فى العالم العربي كمشرف على مكتب تنسيـــق التعريب على الصعيد العربي فقد انكببت على دراسة المصطلح الشعبي من خلال العامية المغربية وأصدرت نتائج ابحاثي فى كتابين هما : « اصـــول العربية فى العامية المغربية » و « نحو تفصيح العامية فى الوطن العربي » حيث قارنت بين اللهجات الدارجة فى مصـــر والشام وامارات الخليـــج

والمغرب العربي ، وحللت الفوارق واستخلصت مظاهر عبقرية الشعب فى التركيز على لغة القرءان لرسم صور حية عما يتلجلج فى خاطره بدقة وعمق مما اثرى لغة الضاد فى نظري وجعل من الضروري الارتكـــاز على هـــذا الرصيد الحي لدعم الفصحى كما دعمها الشعب العربي بسليقته الخلاقـة المبدعة فى العهد الجاهلي ، وتتجه المجامع العلمية الى تحقيق هذا النوع من الاقتباس الذي اسهم فيه الاستاذ محمد الفاسي كعضو فى هذه المجامع لابراز فعالية العامية المغربية فى دعم التراث الحضاري العربي .

ولن اطيل فى جانب آخر من موضوعنا وهو الفن فى عمومه لانني اصدرت منذ عشر سنوات باللغتين العربية والفرنسية كتابا حول الفـــن المغربي صدره ايضا الاستاذ محمد الفاسي بمقدمة بليغة وقد حللت فيه الجوانب الشعبية فى الفن المعماري ومختلف انواع الرسوم التي برهـــن الاطلس وفى ضمنه هذا الاقليم منذ اعرق العصور على ما يذكي الانسان المغربي من حساسية عريقة وذوق رقيق ، ففي مغارات جبـــال أكايمدن رسم الانسان الاول منذ اربعين الف سنة ثلاثة الاف وخمسمائـــة صوره صخرية مغارية تكشف لنا عن الحياة اليومية للرجل المغربي فى الاطلس وقد ابدعت بتلقائية آخاذة طبقا لمنظورية رائعة لا يمكن أن نصدق انها ترفع الى هذا العهد السحيق لولا وجود ما يضاهيها فى مغارات « الماسيـــف سنتـــرال » Massif central الذي يشغل سدس مساحة فرنسا ولم يصل الفنان الحديث الى ابدع مما بلغه الفنان المغربي آنذاك فى تشكيلـه وتشخيصه للحيوان فى مختلف وضعاته وحركاته ، وان دل هذا على شيء فقد يدل على مدى عمق الروح الفنية لدى الانسان المغربي خاصة فى هذا الاقليم الذي كان فى غضون وثنايا التاريخ صلة وصل بين الاندلس والصحراء اللتين اكتملت حضارتهما باشراف صنهاجة ومصمودة .

وما زال التاريخ الحديث يسعفنا بنماذج لهذه العبقريات فقد عرضت فتاة مغربية امية اخيرا الواحا فنية فى باريس تحدثت عنهـا الصحـــف باعجاب لانها تبزهن عما يمكن ان تتمخض عنه التلقائية الفطرية الشعبية من روائع ، وان نظرة الى ما تقلب فيه منذ قرنين جامع الفنا (بفتـح الفـــاء لتعليق رؤوس الثوار فيه) او الفنا بالكسر (كفناء وساحة أمام جامـــع

الكتبية) تصور لنا مدى تنوع جانب الفنون الشعبية كالفنـــاء والرقـــص والبهلوانيات بما تنطوي عليه الملاعب الشعبية فى السيرك العصري مـن انواع الانشطة الرياضية والترفيهية والغنائية وشتى التسخيرات لمختلف اصناف الحيوانات الصغيرة (لان الكبيرة لا يتسع لها هذا الفناء) ، وقـــد خصصت فى موسوعتي المغربية التي بدأت تصدر فى نحو عشرين مجلدا عشرات الصفحات لفئات من الرقص الشعبي مثل احواش فى الجنـــوب والزفن (وهو الكلمة الفصحى للرقص) لدى القبائل العربية كالشاويـــة وزعير كما تحدثت باسهاب عن اجواق الموسيقى الشعبية وروعة تلاحينها وسمو مقاصدها الحكيمة فى ملحونها ومواويلها وبراولها وازجالها التـــي استهدف التنكيب الساخر والوصف المبدع لمساوىء المجتمع وامراضه وعلاجاتها والتهذيب الرقيق لاخلاق المواطنين ، وكان الشعب على مستوى ارفع مما هو عليه اليوم خلقا وثقافة لان « الجامعة الشعبية » كانت قائمة حية فى كل مسجد وقرية تلقى فيها الدروس ليل نهار لتثقيف الخلق الديني وبث روح المواطنة من خلال الفكر الاسلامي الذي يبثه العلماء والفقهاء ، وكلنا نعرف عددا من الاميين الذين كانوا شعراء بل وقضاة ببعض الحواضر كفلس نفسها يناظرون العلماء بل يكفي أن تقرأ ما كتبه الاجانب عن هـــذه الثقافات الشعبية كالمؤرخ موليراس Moulieras فى كتـــابـــه Le Maroc Inconnu « المغرب المجهول » الذي صدر آخـــر القرن الماضي (1895 م) لتلمس مدى انتشار الوعي والقراءة والكتابة حتى فى جبالة والريف خاصة لدى المرأة ، وقد أفردت فصلا خاصا لهذا الموضوع فى الجزء الاول من كتابي « معطيات الحضارة » ثم ان الكثير من هـــذه الفنون الشعبية التي تريد ان تضفي على نفسها صفة الروحانيـــة قـــد استحالت اليوم الى شعوذة غمرت الحواضر والبوادي وزادها ايغـــالا فى السخريات استفحال الامية ابان الحماية الاستعمارية والا فان بعض هذه الفنون ترتكز على معطيات علمية وصفها ابن خلدون فى مقدمته وابن البنا المراكشي فى كتابه حول العزائم والرقى والطلسمـــات والزجـــر والفال والكهانة وخط الرمل ، وكذلك الشيخ عبد الرحمن الفاسي سيوطي المغرب فى رسالة حول علم الكف وهذه من الفنون التي أصبحت تقوم بين جميع طبقات الامة بدور اجتماعي خطير لا مجال لتفصيل القول فيها هنا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

واذا اعتبرنا ان بعض عناصر الفولكلور والفنون الشعبية قد تغلغلت معطياتها فى الصنائع التقليدية منذ ان تركزت الوحدة فى القرن الخامس الهجري بين أجزاء المغرب من الصحراء الى شمال العدوة ـ أمكننـــا ان نستعرض ما كان يسمى بالصنائع المشتركة وكلها شعبية ، فمراكش هي التي تزعمت منذ عهد يوسف بن تاشفين حركة دعم الفن الشعبي الصحراوي بعناصر اندلسية حيث استقدم الامير صناعا بالاضافـــة الى المهندسين لخلق فن معماري جديد قام على اكتاف اختصاصيين من الشعب فى المساجد والحمامات والخانات والسقايات والجسور والقناطر فكانت قنطرة تنسيف فى مدخل مراكش باكورة هذا الفن الذي نقل البلاط المراكشـــي أروع عناصره الى فاس لتوسيع أعظم جامع واقدم جامعة عرفها الاسلام منذ ازيد من ألف عام ، وقد وصف ابن ابي زرع ما أبدعه رجال الحرف والفنون مما هال المستشرقين أمثال مارسي Marçais فانكـــروه لولا كشـــف الحفريات الحديثة عام 1952 م عن جملة من الروائع التـــي أبدعتها يـــد الصانع المغربي تسطيرا وتجبيسا وقرنصة وتزليجا وصبغا وتلوينا ، وقد انطلقت من مراكش فى عهد يوسف الموحدي الذي عاش فى اشبيليـــة فنون شعبية مختلفة من هذا الطراز الذي نتحدث عنه ازدادت ازدهارا فى عهد ولده يعقوب المنصور الذي بنى رباط الفتح وجامع حسان وأكمل منارة اشبيلية والكتبيةوجعل من مراكشبغداد المغرب ببناياتها وقصورها وحدائقها كالمسرة والمنارة وكانت تلك هي الانطلاقة الاولى لتوحيد الفنون الشعبية تحت ظل بلاط مراكش الحمراء فى جميع انحاء المغرب العربـــي حيـــث امتدت بدائع المرابطين والموحدين الى بجاية ومهدية وتونس وتلمســـان والجزائر ، وقد تبلورت هذه الروعة اكثر فأكثر فى العصور التالية ولكن كانت هذه النواة الاولى وقد أشار صاحب « الاستبصار » الى « دار الامة » التي بناها يوسف بن تاشفين للدلالة على مدى اسهام الشعب فى خلـــق الحياة فى المغرب الموحد سهلا واطلسا وصحراء ، كما اشار الادريسي الى « دار الحجر » التي أسسها ولده ووصف عبد الواحد المراكشي فى المعجب (ص 186) اروع مارستان عرفه الاسلام حيـــث اكـــد المؤرخ الفرنسي ميليي Millet فى كتابه الموحديـــن les Almohades ان مستشفيات باريس فى عهد صدور الكتاب (أي عام 1926) تخجل من

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذا المستشفى لحسن تنميقه ووفرة اطبائه وصيادلته وأدويته ولا بدع ان ينطلق هذا الابداع الخلاق من مراكش ، فهل تعلمون ان البلاط المراكشي يرجع اليه الفضل فى تأسيس أعظم حصن ما زال قائما الى الآن وهو حصن جبل طارق فى سنة الاخماس اي عام 555 هـ ؟ ! .

أما القناطر والسواقي فقد استخدم المرابطون رجال الفنون الشعبية من الصحراء والاندلس معززين بمهندسين ويتجلى هذا المزيج الصحراوي الاندلسي فى القنوات التي نقلت الماء من الجبل الى مراكش وهذا النوع هو الخطارات التي ما زالت تستعمل الى الآن والتي يرجع أهمها وهي قنوات عين غبولة برباط الفتح الى عبد المؤمن الموحدي وتعتبر هذه الاعمال فى عصرنا هذا من اختصاص عمال الاشغال العمومية التي كان معظمهم آنذاك بمراكش حيث نقل يعقوب المنصور الماء على قنطرة الى هذه الحضرة aqueduc كما بنى والده قنطرة الوادي الكبير وقنطرة قلعة جابر باشبيلية وانبرى عمال الفنون العسكرية الشعبية لبناء القلاع والقصور والملاجيء والمطافيء فى طول البلاد وعرضها وكذلك الاسوار التي امتازت بالطابية المنيعة ومنها أسوار الرباط الموحدية التي لم ينل منها معول ولا ديناميت التقنية المعاصرة اول سنوات الاستقلال عندما ارادت الدولة فتح شوارع من خلال هذه الاسوار .

وقد ذكر البكري (المغرب ص 163) أن اهل اغمات من هذا الاقليم كانوا قبل بناء مراكش اكثر الناس تكسبا واطلبهم للرزق يكلفون نساءهم وصبيانهم التحرف والتكسب ومعنى هذا أن تدريب الشعب على الفنون والمهن والحرف كان فى مراكش وناحيتها منذ العصور الاولى أوسع وأعمق منه فى كثير من حواضر المغرب ، وبذلك أصبح هذا الاقليم ينافس العالم كله فى روعة انتاجه فكانت جلود اغمات تفوق جودة صنعها جلود الدنيا (حسب عبارة ياقوت فى معجمه) كما برزت أصناف المصنوعات التي عددها الادريسي كالنحاس والاكسية والمنسوجات الصوفية والزجاج والافاريه والعطور والآلات الحديدية .

وحتى المراة ضربت أروع مثال فى تنشيط الفنون الشعبية حيث بذت الرجال فى تلوين الخزف وصنع الزرابي وغزل النسيج وكانت مراكش

باب الصحراء تشرف على تكوين أطر الفن الشعبي فى الاطلس والسهول حتى اصبحت المرأة فى سجلماسة ـ كما يقول ياقوت فى معجمه (ج 5 ص 41) تحيك بيدها الصناع مآزر مصبوغة بادق الالوان تفوق المآزر المصرية ، ويبلغ ثمن الازار الواحد منها خمسة وثلاثين دينارا ذهبيا (كان الدينار يساوي آنذاك خمسة جرامات من الذهب) وقد ذكر مؤرخو القرن الثالث أن مراكش كانت احدى مراحل القوافل التجارية التي تنحدر من الاندلس والبصرة قرب القصر الكبير مارة بسجلماسة الى الخليج خلال الصحراء حيث كان يستعمل نوع من الحوالات المصرفية ، ومن هذه الطريق كانت القوافل المغربية تربط الشرق بالغرب فى عهد الحسن بن محمد الوزان وهو ليون الافريقي فى القرن العاشر الهجري ، ومن هذه الطريق ايضا دخل افريقش الحميري بعربه القحطانيين الذين عمروا الاطلس فكان منهم ـ اذا صحت رواية النسابين العرب ـ مصمودة وصنهاجة علاوة على كتامة فى سهول الشمال ، ولعل هذه الاصالة العربية فى رجال الصحراء المغربية هي التي جعلت الصحراويين من شنقيط والساقية الحمراء ووادي الذهب أقرب فى لهجتهم الى الفصحى ، وقد انعكست هذه الاصالة على مراكش حاضرة الملثمين الصحراويين التي امتازت اسماء حرفها التقليدية بطابع عربي فصيح مثل بامهاود للحكم بالمهاودة والحناط (لبائع الحنطة) والنيار لصانع المناول والسفاط (لصانع السفط اي السلل) والاسكافي لصانع البلاغي الخ . ومعظم أسماء الفنون الشعبية الاخرى فصيحة عريقة على وزن فعال تعد بالمآت كشماع وزيات ونقاش الخ ، ولكن السمة الرائعة فى الفنون الشعبية المراكشية انما تستمد أصالتها الفطرية من روح « نكتة البهجة » التي تنم عن عمق فى الاحساس وبداهة فى التفكير وجزالة فى التعبير لا تضاهيها فى العالم العربي الا نكتة اهل مصر ، وقد صنف عبيد الله بن احمد الزجالي المراكشي المتوفى عام 694 هـ كتابا فى نكت الخواص والعوام توجد نسخه منه فى خزانة القرويين (رقم 985 د) .

وكان نظام الحناطي هو السائد باشراف المحتسب الذي كان يسير دواليب الحياة الاقتصادية فهو الذي يراقب المتاجر والمصانع ويفصل

الدعاوي بين ارباب الفنون الشعبية من حلايقية وبهلوانيين وقصاصين وتجار وصناع ومحترفين ، وكان نظام الحناطي يمتاز بالمغرب كله كما لاحظ المؤرخ باليز Balez في النشرة الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب (عدد 49 و 50) بطابع الحرية حيث أن المخزن كان يحترم مبدأ الحرية التجارية قبل صدور ظهير 1917 القاضي بتنظيم البلديات ، وانما فسد بالاحتكاك بالغرب ـ كما يقول باليز ـ .

ومن مراكش أرسل المولى زيدان بن المنصور السعدي عملاء الى أوربا للدعاية للفنون والحرف الشعبية والمنتجات التقليدية وحمايتها من المزاحمة الاجنبية فحظر آنذاك توريد المنسوجات الانجليزية وغيرها وكان بعض هذه الفنون الشعبية ميراثا للاندلس منذ القرن الخامس الهجري ، ومعلوم ان براعة العرب والبربر في الاندلس كانت ـ كما قال الدكتور لي في كتابه (حول الموريسك) ـ قدوة في الزراعة والصناعة والعلوم والفنون كما كانت خلالهم قدوة في النشاط والمثابرة حيث كان ذلك كما يؤكد الدكتور « من افضل العناصر التي يمكن أن تضمنها دولة متمدنة » . ولم تكن البادية اقل حظوة من الحاضرة لان الفقر ودور القصدير والبطالة لم تستفحل الا ابان الحماية من جراء سياسة نزع الملكية لصالح المعمرين ـ تلك السياسة التي جرفت بكثير من الصناعات والفنون الشعبية ودفعت الآلاف من ارباب الحرف البدوية الى الحواضر حيث تراكموا في احضاض القصدير الموبوءة ، ويكفي دليلا على براعة اليد المغربية الصناع في مختلف الفنون انه بخروج العرب من الاندلس ـ كما يقول لي بول في كتابه « الموريسك في اسبانيا » ـ اندرست حسب تعبيره ـ فنون اشبيلية وطليطلة والمرية وعفت صناعاتها ، ومن هذه الفنون الشعبية ما أشار اليه ابن مرزوق في القرن الثامن حيث ذكر من بين الفنون التي يسميها « الصناعات المشتركة » القسم المتصل بالبناء وحده فعدد النجارين والجباسين والزليجيين والرخامين والقنويين والدهانين والحدادين والصفارين ، وقد ذكر المقري في نفح الطيب أن الموحدين عندما ارادوا اتخاذ أصونة للمصحف العثماني حشروا الصناع المتفنين ممن كان بحضرتهم العلية (أي مراكش) وسائر البلاد من مهندسين وصباغين

ونظامين وحلائين ونقاشين ومرصفين ونجارين ورسامين ومجلدين وعرفاء البنـــــاء .

وقد نوه الحسن بن محمد الوزان فى القرن العاشر الهجري بأصناف من الفنون والحرف والمهن التي ازدهرت بمراكش وفاس وسبتة ، كمـــا ازدهرت بتيويت وسوس وهسكورة بالاطلس وتادلا وسجلماسة بالصحراء.

وكان نصف سكان المغرب تقريبا يضطلعون بمختلف الفنون الشعبية التي كانت تجمع العامي والعالم حيث برع فى مهن شتى علماء أفذاذ فكان الفكر يعزز الوجدان فى بدائع مأثورات الفولكلور الشعبي ، وقـــد قـــام ماسنيون عام 1924 م بتحقيق حول حناطـي الحرف والتجارة بالحواضر فلاحظ أن رجال الحرف يمثلون نصف مجموع السكان ، وكان الشعـــب يضفي على هذه الصنائع من روحه الوثابة فيخلقها خلقا يتجدد مع الايام ، ولذلك زاحم بعضها اوربا كمصانع الورق والزجاج والسكـــر والجلـــود والنسيج ومواد الاستهلاك اليومية التي لم يكن المغرب عالة فيها على احد، ويكفي أن نعلم ان مدن فاس وسبتة وشاطبة كانت تصدر الى اوربا الغربية ورق القطن المغربي كما كان البلاطان فى باريز ولندن يتنافسان فى عقد معاهدات مع البلاط السعدي بمراكش لاقتناء أجود سكر مصفى عرفه العالم آنذاك ، وما زالت بقايا مصانع السكر قائمة تشهد بروعة الادوات المختلفة التي كانت تبدعها يد الصانع المغربي .

وفى ايام الموحدين عرفت مقصورة جامع المنصور بقصبة مراكش وكانت تتحرك جدرانها ومنبرها بمجرد ما تمس رجل الخليفـــة الازرار الموضوعة فى المدخل الخاص فى باب المقصورة ، وكانت تدار بحيـــل هندسية ، واستمرت قرونا الى ان بطلت ايام السعديين عام 1010 (حسب مشاهدات الامام المقري ـ النفح ج 2 ص 704) .

وقد اكد طيراس انه لم تكد تمر ثلاثون سنه على اعتلاء عبد المؤمن اريكة العرش حتى كانت منجزات الشعب المغربي تثير الاعجاب فعمـــت الرفاهية مجموع البلاد وبلغت مدن المغرب من الازدهار ما لم يسبق لها

أن بلغت من قبل ، وفى الاندلس أقر الموحدون نظاما جعل حدا للفوضى المالية التي كان يتخبط فيها ملوك الطوائف ، وانطلق الفلاح المغربي يبني اقتصادا جديدا فى ضيع المنارة التجريبية جعل رحالة انجليزيا زار مراكش عام 1741 م يؤكد انها اجمل بقعة فى افريقيا (دوكاستر) ، وقد احصيت بفاس نفسها أيام المنصور والناصر الموحديين 3094 من أطرزة النسيج و 47 معملا للصابون و 86 معملا للدباغة و 814 للصباغة و 12 معملا لتشبيك الحديد والنحاس و 11 معملا للزجاج و 135 مصنعا للجير و 1170 فرنا للجير و 400 رحى لصنع الورق ، والموحدون هم أول من نظم الاساليب التجارية طبقا لمقتضيات التجارة الدولية ، وقد اقتبس المسيحيون منهم كما يؤكد ذلك « اندري جوليان » الذي ذكر ان الاسطول الموحدي كان أول أسطول فى البحر المتوسط .

كل ذلك بفضل الشعب وضلاعة الشعب فى مختلف الفنون التي كانت تتجمع على كاهله وهذا الشعب هو الذي هب لانقاذ جيوب الشمال المحتلة والوقوف ـ كما قال طيراس ـ في وجه التسرب الاجنبي حيث شوهد تحت أسوار سبتة مجاهدون توافدوا من جنوب المغرب وانبرى السعديون يلمون الشتات لايقاف الخطر البرتغالي الداهم فحرروا أكادير وعدلوا الجبايات تخفيفا على الشعب وفنون الشعب الرازحة تحت الضغوط الاستعمارية واموا بعض المواد وعبأوا جيشا قويا انتصر فى معركة « وادي المخازن » التي كانت صورة لتلاحم الجماهير علماء وعوام دون ميز ، وقد بلغ من ثراء المغرب بعد وقعة وادي المخازن سيطرة الدينار المغربي على السوق العالمية وتنافس الغربيين فى اقتنائه واصبح المغرب يصدر الى انجلترا نفسها المنسوجات والذهب والزيوت والسكر وتبلور ازدهار مجموع الفنون الشعبية باشعاع انتاجها ووفرة المبادلات الداخلية التي بلغت آنذاك بين الشمال والجنوب ما بين الف والف وخمسمائة جمل تعبر يوميا وادي ابي رقراق حاملة مختلف المنسوجات والكتان والاخزاف والمخيطات والزيوت .

وقد عزز الملوك العلويون هذا الوضع فحرر سيدي محمد بن عبد الله الجديدة واقليم مراكش من نفوذ البرتغال وقضى على التهريب فى الجنوب

واسس الصويرة وعقد معاهدات مع دول بروتستانية ومع الولايات المتحدة لمدافعة الاستعمار الايبيري اللاتيني ، كما وزع أموالا طائلة أيام الجفاف على الشعب أوصلها صاحب (درة السلوك) الى نصف مليار دينار ومنح قرضا لدور تجارية شعبية كما منح اعانات لارباب الصناعات انعشت انتاجها ودعمت مختلف فنونها وظلت البادية ناعمة فى ثرائها بعيدة عن الحواضر تسرح فى سهولها آخر أيام المولى عبد الرحمن 48 مليون رأس من الغنم و 6 ملايين رأس من البقر و 12 مليون من المعز وخمسة ملايين من الجمال والافراس والبغال (كودار ص 188) ، وقد اضاف العلويون الى مراكش حدائق أكدال فى شكل ضيع تجريبية تفرس بها علاوة على الفواكه العاديه الازهار والرياحين المجلوبة من اوربا ، كما طور المولى عبد الرحمن زراعة قصب السكر وجلب فنيين من أوربا ومصر لتكرير السكر فى مصنع أكدال بمراكش (الاتحاف ج 3 ص 556) وجلب ولده محمد لترقية الفلاحة آلات دراسة وحفر قنوات الري والآبار الارتوازية وأسس المصانع وخاصة مصانع النسيج ، واحال الرحامنة الى جنان مزهرة ، وكان سائرا فى تخطيطاته وتصميماته التي لم توقفها الا الحرب الاستعمارية ضد فرنسا فى حدود الجزائر وظلت مع ذلك كل من مراكش وفاس تحتلان المقام الاول فى الصناعات المشتركة وتتمتعان فى أوربا بسمعة نادرة لجودة وروعة منتجاتهما .

وقد انكب على الصناعات المشتركة والحرف والفنون المختلفة علماء افذاذ منهم محمد بن أحمد بن طاهر المعروف بالخدب كان ينتحل الخياطة بفاس وقد راس أهل عصره فى النحو خاصة واخذ عنه ابو ذر الخشني وابن خروف النحويان (جذوة الاقتباس ص 168) .

كما كان الشيخ محمد بن عبد الله معن يتمعش بعمل دود القز (نشر المثاني ج 1 ص 197) فى حين كان الفشتالي التلمساني تاجرا فى قيسارية اسفي يدير حانوته بعد الفراغ من مجلس تدريس الموطأ والسير والنحو والآداب واللغة وقد عاصر الموحدين (663 هـ) (الذيل والتكملة) وكانت هذه شنشنة علماء الاسلام قاطبة كأبي حنيفة الذي كان يتجر فى القز بالكوفة والامام الخصاف احمد بن عمر بن مهير صاحب المصنفات الفقهية

الذي كان يتعيش من خصف النعال والجصاص شيخ زمانه الذي ينتسب الى العمل فى الجص والشيخ ابراهيم المتبولى بائع الحمص المسلـــوق بالقاهرة (طبقات الشعراني ج 2 ص 27) وابو تمام الذي كان سقـــاء فى جامع عمرو بن العاص (ابن خلكان ج 1 ص 172) والجاحظ الذي كان يبيع الخبز والسمك (معجم الادباء ج 1 ص 369) وابو العتاهية بائع الجرار والفخار وابو بكر الصبغي من أعيان فقهاء الشافعية (المتوفى عام 344 هـ) الذي كان يعمل الصبغ بنفسه ويبيعه فى حانوت كانت مجمـــع الحفاظ والمحدثيـــن .

ومن هذه الفذلكة يتجلى الدور الهام الذي قامت به الحرف التقليدية والفنون الشعبية والمركز الاجتماعي الذي شغلته فى مختلف العصـــور طبقة التجار والمحترفين والفنانين ، كما يبدو بوضوح أن الفضل كـــل الفضل يرجع لتلك التلقائية الخلاقة التي كانت تذكي روح الشعب المغربي فيبدع هذه الروائع التي ما زالت اشعاعاتها تنير لنا طريق المستقبـــل بتشجيعات صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله الـــذي ما فتـــىء يكد لتجديد معالم الحاضر انطلاقا من تراثنا الخالد .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الرباط **عبد العزيز بنعبد الله**